صلاح الدين الايوبي في الشعر العربي المعاصر

بقلم الدكتور صالح جواد الطعمة

— ١ —

التلميح الى بطل ، او معركة او الاستشهاد بهما وسيلة يستعين بها الشاعر لتحقيق اغراض عدة اهمها اغناء الطاقة الشعورية التي يعبر عنها ، واثارة مشاعر معينة يقترن بها الرمز الملمح اليه ، او المصرّح به ، دينية كانت ام سياسية .

وشعرنا العربي المعاصر يزخر بامثال كثيرة لهذا النمط من التلميح او الاستشهاد تتصل بمواقف دينية وسياسية ، وتهدينا الى ما يؤثره قائلوها او يستخدمونه من رموز ... فشوقي معروف — بصورة خاصة — باستشهاداته الاسلامية والفرعونية ، وبدر شاكر السياب مغرق في تموزياته وبعض الصور المسيحية بالاضافة الى رموز عربية — اسلامية ، وسليمان العيسى يكاد يقتصر في تغنيه البطولي على اصول عربية ، بينما يتسع افق عبد الوهاب البياتي فيشمل اشارات مستمدة من مختلف الاديان والقوميات .

ومن الطبيعي ان يتجه الاستشهاد في الشعر السياسي الى التاريخ القومي بالدرجة الاولى يستمد منه ما يلقي ضوءا على الوضع المعاصر ، ومن الطبيعي ايضا ان تتردد الاشارات الى ابطال عرب كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وطارق بن زياد ، وعبد الرحمن الداخل وآخرين في فترة يتعرض فيها الوطن العربي الى آثار المطامع الاستعمارية وخطر العدوان الغربي المتواصل (١) .

ولم يقتصر استشهاد الشاعر بنماذجه البطولية على بيت ، او بضعة ابيات ، بل استحال في كثير من الاحيان الى قصائد طويلة تمجد بسالة الابطال ، وتصف اعمالهم وسجاياهم بشيء من التفصيل، كقصيدة احمد شوقي في عبد الرحمن الداخل ، وعمر ابي ريشة في خالد بن الوليد وعلي محمود طه او علي الجندي في طارق بن زياد، وشكيب ارسلان في صلاح الدين الايوبي او معركة حطين ، وسليمان العيسى في ابي ذر الغفاري (٢) .

واذا حاولنا ان نقوّم مكانة الابطال العرب والمسلمين في الشعر المعاصر لوجدنا ان صلاح الدين الايوبي (١١٣٨ — ١١٩٣) يشغل مقاما بارزا لا من حيث تكرار التلميح اليه كبطل يستحق التمجيد فحسب، بل من حيث التأكيد عليه كرمز للخلاص من المحن التي يعانيها العرب اليوم . وليس من الغرابة في شيء ان يكتسب «صلاح الدين» هذا اللون من الرمزية كما انه ليس من الغريب ان يتميز بمكانته المرموقة لا في مجال الشعر فحسب ، بل في مجالات اخرى كالدراسات التاريخية او الادبية (٣) . فقد كان القائد الذي وضع حدا للمطامع الاوربية في جزء مهم من الوطن العربي ، واعاد للمسلمين حقوقهم في فلسطين والشام ، وكان — الى جانب ذلك — مضرب المثل في النبل والانسانية تجاه اعدائه . واذا كان من حق الشعراء العرب في عصره ان يشيدوا بانتصاراته (٤ أ) ، فان من حق الشعراء اليوم ان يجددوا ذكره ، ويستنهضوا باسمه الهمم في الاطار العصري للصراع بين العرب والغرب بصورة عامة ، وبين العرب والمطامع الصهيونية في فلسطين خاصة .

اما الشعراء الذين تناولوه او لمحوا اليه ، او استشهدوا به فهم اكثر من ان يشملهم حصر وبينهم شعراء من مختلف الاقطار العربية، يمثلون اتجاهات سياسية او عقائد دينية متباينة ، ومذاهب شعرية مختلفة كحافظ ابراهيم — شكيب ارسلان — كامل امين — عامر محمد بحيري — عبد الوهاب البياتي — علي الجارم — شفيق جبري — خالد الجرنوسي — علي الجندي — كاظم جواد — محمد مهدي الجواهري — موسى الحداد — محمد الشاذلي خزنه دار — عبد الغني الخضري — يوسف الخطيب — رشيد سليم الخوري — عبد الكريم الدجيلي — محمود درويش — هارون رشيد — معروف الرصافي — توفيق زياد — بدر شاكر السياب — محمد رضا الشبيبي — محمد الشريقي — احمد شوقي — خالد الشوّاف — محمود محمد صادق — جورج صوايا — جورج صيدح — ابراهيم طوقان — محمود عبد الحي — علي صدقي عبد القادر — انور العطار — عباس محمود العقاد — غريب محمد غريب — الياس فرحات — سميح القاسم — عبد العليم القباني — نزار قباني — الياس قنصل — زكي قنصل — عبد المحسن الكاظمي — عبد الكريم الكرمي (ابو سلمى) — محمد مصطفى الماحي — صالح مجدي — احمد محرّم — خليل مردم — عدنان مردم — كمال النجمي — ابو الوفا محمود رمزي نظيم — رشيد الهاشمي — سعدي يوسف .

ولا شك في ان هذه القائمة لا تمثل الا جانبا صغيرا من التلميحات الشعرية الى صلاح الدين ، وان هنالك نماذج اخرى كثيرة لم تتح لي الظروف الوقوف عليها ، غير ان ما تجمع لديّ من نتاج شعري يتصل بصلاح الدين يساعدنا على تكوين صورة واضحة المعالم عن استخدام الشاعر العربي للبطل في ثلاثة اطارات متداخلة : الاسلامي ، والعربي، والفلسطيني .

— ٢ —
صلاح الدين في الاطار الاسلامي

لقد كان احمد شوقي (١٨٦٨ — ١٩٣٢) — وهو الشاعر الاسلامي المنحى — في طليعة المعنيين بالدلالة الدينية لـ «صلاح الدين» (٤ب)، وقد وردت في شعره عدة اشارات (٥) يشيد فيها بالبطل الاسلامي

اقدمها ما جاء في قصيدته «كبار الحوادث في وادي النيل» التي قالها في المؤتمر الشرقي الدولي المنعقد في مدينة جنيف سنة ١٨٩٤ (٦) . والقصيدة من مطولاته الشهيرة ، يستعرض فيها الشاعر ـ كما يوحي عنوانها ـ الاحداث البارزة في تاريخ مصر منذ العهد الفرعوني حتى العهد العثماني ، وقد خصّ آل آلاب لعدد من الابيات التي تصف بسالتهم في الذود عن الاسلام ، مستشهدا بصلاح الدين كحصن الاسلام .

يعرف الدين من صلاح ويدري ... من هو المسجدان والاسراء
انه حصنه الذي كان حصنا ... وحماه الذي به الاحتماء
يوم سار الصليب والحاملوه ... ومشى الغرب قومه والنساء
بنفوس تجول فيها الاماني ... وقلوب تثور فيها الدماء
يضمرون الدمار للحق والناس ... وديـن الذين بالحق جاؤا
ويهدّون بالتلاوة والصلبان ... ما شاد بالقنا البناء
فتلقتهم عزائم صدق ... نص للدين بينهن خباء

والاشارة الثانية وردت في قصيدته «تحية غليوم الثاني لصلاح الدين في القبر» (٧) التي تروي ما ابداه الامبراطور غليوم خلال زيارته لدمشق ١٨٩٨ من اجلال واحترام لصلاح الدين ، وقد القى خطابا جاء فيه قوله «ومما يزيد في سروري اني موجود في بلد عاش بها من كان اعظم رجال عصره ، وفريد دهره شجاعة وبسالة ، من كان قدومه الشهامة ، والذي كانت شهرته متجلية في الآفاق الا وهو البطل صلاح الدين الايوبي» (٨) . ومما قاله شوقي معلقا على هذه الوقفة :

عظيم الناس من يبكي العظاما ... ويندبهم ولو كانوا عظاما

. . . .

رعاك الله من ملك همام ... تعهد في الثرى ملكا هماما
ارى النسيان اظماه فلما ... وقفت بقبره كنت الغماما
تقرّب عهده للناس حتى ... تركت الجيل في التاريخ عاما
أندري اي سلطان تحيي ... واي مملك تهدي السلاما ؟
دعوت من اجلّ اهل الارض تربا ... واشرفهم اذا سكنوا سلاما
وقفت به تذكره ملوكا ... تعود ان يلاقوه قياما
وكم جمعتهم حرب فكانوا ... حدائدها وكان هو الحساما

وشوقي هنا يتحدث عن «صلاح الدين» كبطل من غير الاشارة الى الجانب الديني من بطولته ، وان كان الدين دافعه ، جامعا في الابيات الثلاثة الاخيرة ما عرف عن صلاح الدين من بطولة في الحرب ، ونبل سيرة في السلم ، وما تركه من رهبة او اثر في نفوس اعدائه وما كان يلاقيه ـ نتيجة ذلك ـ من اجلال . وبالاضافة الى ذلك ، يستغل الشاعر المناسبة ليلمح الى ما لقيه هذا الفارس ـ على يد قومه ـ من اهمال ، او نسيان ، ويوحي بأن الفضل في تجديد ذكراه يرجع لمن ينتسب الى خصومه بصلة . وقد وضح شوقي هذا المقصد في تعليقه النثري على محمد الفاتح وصلاح الدين المنشور في المؤيد (١٨٩٩) قائلا على لسان الدرويش : (٩)

«ليس بعد الخلفاء الراشدين افضل من محمد الفاتح وصلاح الدين . فأما الايوبي فدرع الاسلام ووقاه وعرينه وحماه ، وسيفه الذي انتضاه فنجاه من الغمّ وكفاه البلاء الجم ، وجعله مهيبا في ماضيه ، رهيبا في نفوس اعاديه ... واني اعجب للكتاب الحاضرين، والشعراء المعاصرين كيف غفلوا عن تجديد ذكرهما ... وفي ذلك ما يوقظ راقد الهمم ، ويحيي موات هذه الامم ... ويدعو الى التعلق بكبير الآمال ، ويحمل على التشبه بمشاهير الرجال ...» حتى يقول: «اما نحن معاشر المسلمين فما زال تسعة اعشارنا جاهلين حتى عرّفنا غليوم من صلاح الدين ..» وعاد شوقي الى التفاتة غليوم الثاني مرة اخرى عندما زار ابنه مصر عام ١٩٠٣ ، فنظم عدة ابيات يرحب فيها بولي عهد المانيا آنذاك «تحية لضيف عظيم» (١٠) ، ويذكر وقفة ابيه محييا صلاح الدين ، ويدعوه الى ان يقف من «رمسيس» ـ رمز مجد مصر ـ موقف ابيه من صلاح الدين .. فهو اهل لذلك .

ما نسينا وقوفه بصلاح الدين والعالمون في نسيان
كلمات قد زادت القبر طيبا ... فوق طيب العظام والاكفان

. . . .

قف برمسيس انه كصلاح الدين اهل لذلك الاحسان

وهذا الاعجاب بصلاح الدين ، والحرص على تجديد ذكراه دفعا شوقي الى الاستشهاد به في مواضع اخرى منها قصيدته «الاندلس الجديدة» التي قالها بعد انتصار البلغار على ادرنه (١٩١٢) ، وشبه فيها الحملات المعادية للعثمانيين بالحملات الصليبية :

. . . .

عيسى ، سبيلك رحمة ومحبة ... في العالمين وعصمة وسلام
ما كنت سفاك الدماء ولا امرأ ... هان الضعاف عليه والايتام

. . . .

اتت القيامة في ولاية (يوسف) ... واليوم باسمك مرتين تقام
كم هاجه صيد الملوك وهاجهم ... وتكافأ الفرسان والاعلام
البغي في دين الجميع دنية ... والسلم عهد والقتال زمام
واليوم يهتف بالصليب عصائب ... هم للاله وروحه ظلام (١١)

وفي مرثيته للطيارين العثمانيين اللذين سقطا في طريقهما الى مصر سنة ١٩١٣ ، ودفنا في دمشق ، يضفي على مثواهما قدسية مستمدة من ضريح «صلاح الدين» :

حتى نزلتم بقعة فيها الهوى ... من قبل ثاو والسماح نزيل
عظمت وجلّ ضريح «يوسف» فوقها ... حتى كأن الميت فيه رسول(١٢)

وقصيدته المشهورة «نكبة دمشق» التي قيلت في سنة ١٩٢٦ ، تذكر بين ما تذكر من مفاخر دمشق صلاح الدين كتاج لها لم يكتب لسواها بازين منه :

صلاح الدين تاجك لم يجمّل ... ولم يوسم بازين منه فرق (١٣)

ان في هذه الامثلة ما يكفي لتوضيح مدى استحواذ صلاح الدين على شوقي كرمز أمثل للبطولة ومكارم الاخلاق ، وقد استدعاه في مناسبات مختلفة متناثرة في فترة امتدت على الاقل بين ١٨٩٨ و١٩٢٦ .

ولعل الامير شكيب ارسلان (١٨٦٩ ـ ١٩٤٦) يمثل اقدم شاعر معاصر تناول صلاح الدين بصورة اكثر تفصيلا مما لاحظناه عند شوقي، وذلك في قصيدته «بحيرة طبرية او واقعة حطين» (١٩٠٢) التي بلغ عدد ابياتها «١٤٣» بيتا (١٥) ، وقد اثنى عليها عدد من النقاد كمارون عبود الذي اعتبرها «ابلغ قصائده ان لم تكن خير ما قيل في موضوع كهذا » (١٦) .

والقصيدة ـ حسب تقسيمها في المقتطف ـ تتكون من خمسة اجزاء ضم الجزءان الاولان منها (١ ـ ٥٨) وصفا لمشاهد الطبيعة التي تحيط ببحيرة طبرية ، وعرضا للمعالم البارزة في الحركات التي اقترنت بها المنطقة ، ومقارنة سريعة بين ماض خصب مزدهر ، وحاضر يكاد يكون قفرا حتى ينتهي الى قوله :

علم عيسى هنا شريعته ... وقوم موسى توراتهم فسروا
وفي حروب الصليب قد رفعت ... اعلام دين الذي نمت مضر

ويبدأ بعد ذلك الجزء الثالث (٥٩ ـ ٨١) وفيه يستعرض الشاعر اولا الغزو الصليبي وما كان يعاني المسلمون آنذاك من خور وضعف تجاه الخطر الذي كاد يمتد الى اجزاء اخرى من ديارهم :

يا يوم حطين كم حططت من الا ... فرنج شانا ما كان ينكسر
هبوا من الغرب كالجراد فلم ... يكن لشرق بردّهم قدر
واستفتحوا القدس والبلاد ولم ... يعص عليهم بدو ولا حضر
وهددوا المسجد الحرام وكم ... دعا ملبّ فيه ومعتمر
وكاد يبكي الميزاب فيه دما ... ورقّ مما اصابنا الحجر
ونابت المسلمين داهية ... دهماء قد عمهم بها الذعر
فكل كف اصابها شلل ... وكل عزم اصابه خور

ثم يتطرق ثانيا الى دور بعض الولاة والامراء ـ كعماد الدين زنكي

(الموصل) ونور الدين (الشام) ، وعم صلاح‌الدين « شيركوه » ـ في مقاومة هجمات الصليبيين ليركز الاضواء بعد ذلك على صلاح الدين:

ثم ابن ايوب جاءه خلفا ... وليس الا سروجه سرر
مهد دار المعز فانقلبت ... بيوسف مصر وهي تفتخر
لما استقامت له الامور ولم ... يبق رقيب وانجابت الغمر
أقبل في جحفل له لجب ... يطلب ثار الدين الذي وتروا

ويحوي الجزء الرابع من القصيدة (٨٢ ـ ١١٥) وصفا للمعركة التي وقعت في حطين (١١٨٧) بين جيش صلاح الدين والصليبيين ، وبسالة المسلمين وانتصارهم ، وحسن معاملة صلاح الدين لأسراه من الامراء باستثناء امير الكرك آنذاك ـ رينو (ارناط) ، الذي نسبت اليه من الاعمال الوحشية ما دفع صلاح الدين الى القسم بقتله ان وقع في يده ، كما يقول الرواة (١٧) .

يوم تلاقى الجمعان والتظت الهيجاء حتى كانها سقر
يوم تلاقى الجمعان وانتصب الميزان رهن انحرافه الظفر
فأمطرهم قسيّ جيش صلاح‌الدين نبلا من دونه المطر
كانما قومنا وقد ثبتوا ... شم حصون لها القنا جدر
كانما قومنا وقد وثبوا ... زعازع للغصون تهتصر
كأن سوق الجهاد قائمة ... وهم بصنف الردى هم التجر

. . . .

يوسف عصر ، صلاح مملكة ... بكل امر للبر مؤتمر
اصبح مستحييا دماءهم ... حياؤه الخلائق الزهر
ابى عليه الاباء مصرعهم ... وعف اذ عف وهو مقتدر
عقرا به عمهم واخرج ... نكبته السهل ضاق والوعر

. . . .

وفي القسم الخامس والاخير (١١٦ ـ ١٤٣) يلخص الشاعر ما سببته حطين من هزيمة بعيدة الاثر لسياسة الغرب ، وبعدد ما عرف به صلاح الدين من مآثر وما خلف من ذكر عطر لا بين قومه فحسب بل لدى اعدائه مستشهدا كشوقي بوقفة الامبراطور غليوم في زيارته لدمشق . ويؤكد الشاعر فيه ان صلاح‌الدين مسؤول عن نصر المسلمين في واقعة اعتبرت حاسمة في تاريخ الحملات الصليبية ، وانه قام بوجه الاعداء منفردا ، واستُرد حقوق المسلمين ، وأمن دارهم ، وان اعجاب الناس به قد تجاوز حدود الوطن الى ديار الاعداء لما اتسم به من رأفة وحلم .

ان عيب بالحلم والوفا بطل ... فانه خير ما هفا البشر
ما شان طول الاناة في رجل ... ان لم يكن شان باعه القصر
قد كان في رقة وفي جلد ... كالسيف في ماء حدّه الشرر
جمرة باس ما شابها وهل ... غمرة حلم ما شابها كدر

. . . .

وكان من حرمة العدو له ... ان ذكره في بلاده عطر
تغدو عظام الملوك واقفة ... ببابه وهو اعظم نخر
وينحني حاسرا بتربته ... رأس باعلى التيجان معتجر
شهادة منهم لخصمهم ... والحق كالشمس ليس يستتر
والفضل يحيا من بعد صاحبه ... والذكر يبقى ولو عدت غير

وارسين كشوقي لم يكتف بتمجيده الشعري لصلاح‌الدين ، بل ترجم احدى وصايا البطل لابنه الظاهر الى الفرنسية ونشرها في مجلته التي كان يصدرها في اوربا بالفرنسية ، وصرح في موضع اخر انه ينوي ترجمة سيرة صلاح الدين كلها الى الفرنسية « لان الافرنج معجبون بأخلاقه ولكنهم يجهلون نوادره التي كسب بها هذه الشهرة» (١٨) . ومما يجدر ذكره ان الشاعر اختتم قصيدته بالبيت التالي :

ونحن من بعد كل ذاك وذا ... لم يبق الا الحديث والسمر

ولعله كان يهدف من ذلك الى اتهام المسلمين او قادتهم بالتقاعس في ميدان العمل الايجابي ، والتمادي في سياسة الكلام ، وفي القصيدة ما يؤيد هذا التعريض بقومه في سياق اخر كقوله :

والغور بين البحرين منبسط ... تسرح فيه الجآذر العفر
لو طبقته ايدي الورى عملا ... على فلسطين فاضت المير
قد كان والماء غابرا شرعا ... والآن ما ان يكاد ينحسر

ويلجأ الامير ارسلان الى «صلاح الدين» في اطار اسلامي معاصر عندما ينتهز فرصة تمثيل مسرحية «صلاح الدين» في الاستانة ليحذر قومه من مؤامرة الغرب على الكيان العثماني ، معبرا عن تطلعه الى قائد كصلاح الدين ، وذلك في قصيدة القاها قبل اندلاع الحرب العالمية الاولى بسنة (١٩١٣) (١٩) .

فمن كصلاح الدين تعنو لذكره ... رؤوس اعاديه ومن ذا يعادله

. . . .

فيا وطني لا تترك الحزم لحظة ... بعصر احيطت بالزحام مناهله
وكن يقظا لا تستنم لكيدة ... ولا لكلام يشبه الحق باطله
وكيد على الاتراك قيل مصوب ... ولكن لصيد الامتين حبائله

ومن القصائد الخاصة بـ «صلاح الدين» ، قصيدة الشاعر على الجندي «بطل حطين» (٢٠) ، وفيها نلمس محاولة بارعة لتجسيد سيرة صلاح الدين في لوحة تجمع عناصر البطولة ومكارم الاخلاق ، وتؤكد موقفه الدفاعي عن الدين وحقوق المسلمين امام الغزو الاجنبي.

واول ما يفعله الشاعر في مفتتح القصيدة هو ان يعرض سمات البطل البارزة في ضربات فنية متلاصقة ، ليخلص منها الى القول بأن سر انتصار صلاح الدين ينطوي في تلاحم البطولة وشرف النفس .

رق حتى لقيل نفحة روض ... كللت وشي زهره انداؤه
وسطا فالحمام احمر لا يؤمن بالليل والنهار لقاؤه
وعفا فالحياة فاءت الى الجاني وفي مخلب الردى حوباؤه
لم يكن يوسف الجمال ولكن ... يوسف النبل ما حواه رداؤه

. . . .

داء اعدائه ، ويأتيهمو منه ... ـ بلا منة عليهم ـ دواؤه
والاسارى ضيوفه ، وعريق ... في الندى من ضيوفه اسراؤه
ايدته خلف العوالي سجاياه ... وابلت قبل الظبا اراؤه
كيف يطوي الخذلان اعلام جيش ... البطولات كلها نُصراؤه !
كل غاز لم يدرع شرف النفس ... هوى ـ قبل ان يتم ـ بناؤه

وينتقل بعد ذلك الى المواجهة بين صلاح الدين والصليبيين ، فينفي عن البطل اية خصومة للمسيحية كدين ، ويوحي ببراءة المسيح ممن شهروا السيف باسمه ، ويشير مرة اخرى الى تضافر العناصر المتباينة التي اسهمت في انتصار البطل : السماحة والقوة ، والتواضع والاباء ، ملمحا الى ان البطل لم يأخذه الغرور او التجبر ، بالرغم من معجزة انتصاره .

لم يكن للصليب خصما ولكن ... حاملوه يوم الوغى خصماؤه
شهروا السيف والمسيح بريء ... من سيوف يسْتلها اولياؤه
فأتاهم ـ تحت العقاب ـ حسام ... ليس يخزيه في الهياج مضاؤه
فيه الحق ، والشجاعة والبأس غراره والسماحة ماؤه
يوم حطين حط كل رفيع ... منهمو طاول السماك علاؤه
هكذا البغي ليس ينصر باغ ... صارع المعتدي الاثيم اعتداؤه
وانثني خاشعا وان راح مختالا على قمة السحاب لواؤه
لم ترنح له المخيلة عطفا ... وجميل من ظافر خيلاؤه

ويعيد الشاعر الى الاذهان الصورة المثلى للبطل المبنية على شهادة الاعداء بفضله في الحرب والسلم :

فارس الغرب راعه فارس الشرق ويدري فضل الفتى اكفاؤه
لم تخيب رجاءه حين رام السلم والحـر لا يخيب رجاؤه

• • • •

اشرف الفاتحين نفسا وسيفا من اقرّت بفضله اعداؤه

ومن القصائد الاخرى التي عنيت بعنصري البطولة والخلق عند صلاح الدين قصيدة الشاعر خالد الجرنوسي «البطولة والرحمة في الاسلام» (٢١ ج) ويجد فيها القاريء تأكيدا على انسانيـة البطل ، ومقارنـة بيـن حسن معاملته للاعـداء وضراوتهـم في التعامل مع ابناء الارض المحتلة .

هو المسلمون الاولـون تجمعوا فكانوا صلاح‌الدين‌قدقهر الدهرا
اعادوا الى‌الاسلام اسياف‌خالد ولا قيصر عال عليها ولا كسرى
يذوب مـن الاسلام رفقـا ورحمـة ويلقي على الاعداء مـن عفوه سترا
صليبية بدلت لهفتها رضـا وصيرت عسرا من‌قضيتها يسرا
وهااهلها‌الغازون‌قداحرقوا القرى فما رحموا طفلا ولا مهجة‌حرّى

ان هذه الامثلة ـ ولا شك في ان هنالك نماذج اخرى مماثلة لها في الاتجاه ـ تؤكد على اقتران البطل بدفاعه عن الدين ، وليس فـي هذا المنحى من غرابة ، لسببين اساسيين اولهما الطبيعة الدينيـة لمعارك الصليبيين ذاتها ، وثانيهما الروح الدينية التي دفعت الشعراء انفسهم كشوقي وارسلان وغيرهما الى استلهام صلاح الدين فـي اطار اسلامي خاصة في الفترة التي سبقت انهيار الدولة العثمانية ، او الروح الصليبية التي انعكست في الغزو الاوربي الجديد مما جعل المفكرين العرب ينظرون الى الاستعمار الغربي كامتداد للحـروب الصليبيـة (٢١ ب)

★★★

ـ ٣ ـ

صلاح الدين في الاطار العربي ـ الفلسطيني

غير اننا نلاحظ في الشعر الذي قيل بعد الحرب العالمية الاولى ان هنالك تحولا في الاستشهاد بـ «صلاح الدين» من الاطار الاسلامي الى الاطار العربي ـ الفلسطيني ، ولكن هذا التحول لم يهمل اهمـالا تاما علاقة البطل بالاسلام ، لاسيما في المرحلة الاولى التي اعقبـت انفصال العرب عن الدولة العثمانية ، وذلك لان رؤية الشاعر للصراع العربي ـ الغربي ، ظلت طويلا ـ ولا تزال ـ تعكس مزيجا من النزعة القومية العلمانية والروح الدينية وان كان للاولى النصيب الاوفر . وفي طليعة القصائد التي نلمس فيها تمازج العروبة والاسلام قصيدة الشاعر محمد رضا الشبيبي (١٨٩٠ ـ ١٩٦٥) «دمشق وبغداد» التي قالها بعد انهيار الحكم العربي الاول في سوريا مقاوما الاحتـلال الفرنسي . ففي هذه القصيدة التي تعالج ماساة عربيـة معاصرة ، يستعيد الشبيبي الامجاد العربية والاسلامية ، وبنهم العرب بالعقوق ازاء ما قام به اجدادهم وما خلفوه من اعمال ومآثر باكيا عهد «صلاح الدين» والفاتحين العثمانيين : «محمـد ومراد» والحمدانيين وغيرهم (٢٢) .

رزيء الصلاح صلاح دين محمد والفاتحان (محمـد) و (مراد)
الذاهبون مضى لنا بذهابهـم في الله جد دائـم وجهـاد
خنا ذمام الفاتحين وعهدهـم ما هكذا تستنجـب الاولاد
انا بما نجني وهم فيما جنوا بئس البنون ونعمت الاجـداد
كانت حفائظ (يعرب)ان صولیت نارا ونار الاخرين رمـاد
اني يذكرني الشهامـة عنتر غنيا ووالـد عنتـر شـداد

ويماثل هذا الاتجاه معروف الرصافي (١٨٧٥ ـ ١٩٤٥) فـي قصيدته «مظاهر التعصب في عصر المدنية» وقد استنكر فيها ما جاء في خطاب القائد الفرنسي غورو من نغمة صليبية ، مستفيثا بـ«صلاح الدين» ليشهد ما اصاب قومه‌من مهانة تحت الغزو الغربي الجديد(٢٣).

حنانيك‌يا قبر ابن‌ايوب فانصدع لينهض ثاو في مطاويك مفضال
اليك صلاح الدين نشكو مصيبة اصيب‌بها قلب العلى‌فهو مفتال

• • • •

وقطبت الايام حتـى تشابهت بها غدوات كالحات وآصـال
وامسى‌حمى الاسلام‌تنتاب روضه فترعاه من سرح المعادين آبال

والامثلة على استدعاء صلاح الدين في الاطار العربي كثيرة، فهذا شاعر المهجر الكبير «القروي» ـ مثلا ـ لا يجد غير «صلاح الديـن» يشبه به بطولة سلطان الاطرش في هجومه على الفرنسيين عند اندلاع الثورة السورية ١٩٢٥ في الحادثة الشهيرة باسم «التنك» فيقول :

وحسام«سلطان» وهل من‌سامع بحسام سلطـان ولا يتحمس
ملّ القراب‌الى الرقاب تشوقا ملل الصبي عليه طال المحبس
فنضاه يذكرهم صلاح الدين‌في ضرباته لما رآهم قد نسـوا
ان تجمد الانفاس عند لقائـه فعلى مهنده تسيل الانفس(٢٤)

واذا اراد الشاعر المهجري الدكتور جورج صوايا ان يتبحر بقيام كيان عربي مستقل في سوريا (١٩٢٠) فانه لا يرى بدا من ان يتصور «صلاح الدين» يبعث من جديد ، في دمشق ، في شخص الملك فيصل:

يا امتي جاهري بالحق لا تجمي ونازعي الخلق بقيا مجدك‌الهرم
هبي‌الى‌الذود عن‌حق‌لك‌اهتضموا وقابلي ظلمهم بالظلم وانتقمي
قد قام فينا (صلاح‌الدين)و يحهم فليقحم الشام‌من‌قد قال لم يقم
ففيصل العرب مستل بساحتها في‌حدّه‌الحدبين‌الذل‌والشمم(٢٥)

غير ان الشاعر المصري احمد محرّم (١٨٧٧ ـ ١٩٤٥) يرسـم لاقتران الملك فيصل بصلاح الدين صورة مناقضة ساخرة يوحي فيها بان فيصلا كان موضع اهانة البطل لوقوفه الى جانب اعداء الاسلام ، وذلك في قصيدة قالها عند نزول الملك في القاهرة بعد ضيـاع عرشه (٢٦) :

نزيل النيل كيف تركت ملكـا الم ببابك العالـي نزيـلا ؟
واي التاج يرفع في دمشـق فيصدع هامة الجـوزاء طولا ؟

• • • •

نزلت‌غلى «صلاح‌الدين » ضيفا فلـم ترض المقام ولا الرحيلا
احقا كنت رب التاج فيهـا وكنت الشعب والملـك النبيلا!
دع النعمـان انت اجل ملكـا وامنع جانبـا واعز غيـلا

وجورج صيدح ، يدعو ـ على طريقة الشعراء القدامى ـ موكب الجلاء الى الوقوف اجلالا عند قبور ابطال العرب ، وفي مقدمتهم« صلاح الدين » (٢٦) وفي هذه الدعوة تلميح واضح الى اهميـة السير علـى تطوير اولئك الابطال في بناء الكيان العربي الجديد .

ولدينا امثلة اخرى تتردد فيها الاشارة الى « صلاح‌الدين » فـي معرض التغني بامجاد الوطن العربي او سوريا او دمشق ـ حيث برقـد البطل ـ على وجه التخصيص ، كقول بدر شاكـر السياب (١٩٢٦ ـ ١٩٦٤) في قصيدته الرائعة « بور سعيد » مصورا بطولتهـا في وجـه الصليبيين الجدد : (٢٨)

من سدد النار في ايديك يوردها كيد المغيرين منه الظن والنظر ؟
واحتاز في قلبه الاحقاب يزرعها في جانب منه واستبسالك‌الثمر؟
واستنفر الشرق‌حتى كـاد ميته يسعى ؟ اهذا صلاح‌الدين ام‌عمر؟

او اشارة الياس قنصل :

اسال صلاح‌الدين يوم تجمعت عصب الى شرب الدماء ظوامي
خبر الفرنجة منه‌ما العربي في كرم‌الخصال‌وساحة الصمصام(٢٩)

وقول محمود عبدالحي في قصيدته « دمياط بين الماضي‌والحاضر» مخاطبا مدينته دمياط ، تلك التي زارها صلاح‌الدين (عام ١١٧٧) بعد

عودته الظافرة من الشام :

الثرى الحر الذي من فوقه ... هزم الشر ورد المعتدي
من ربي (حطين) للنصر الى ... ارض دمياط سنا لم يخمد

• • • •

نحن شعب آمن في ارضه ... سيد ليس له من سيد
نحن علمنا العدا من قدم ... ادب الحرب ونبل القود
سل(صلاح الدين) عنه او فسل ... عنه (ريكاردوس قلب الاسد) (٣٠)

او ما قاله شوقي في « نكبة دمشق » (١٩٢٦) :

صلاح الدين تاجك لم يجمّل ... ولم يوسم بأزين منه فرقا

او ما جاء في قصيدة حافظ ابراهيم (١٨٧١ ـ ١٩٣٢) « تحية الشام » التي انشدها في الجامعة الاميركية ببيروت (١٩٢٩) (٣١)، مشيرا الى « صلاح الدين » كرمز لامجاد الماضي ، وخليل مطران كمفخرة الشام اليوم :

من رام ان يشهد الفردوس ماثلة ... فليفش احياءكم في شهر نيسان
تاهت بقبر صلاح الدين تربتها ... وتاه اخياؤها تيها بمطران

واخيرا ما قاله الشاعر خالد الشواف مشيدا بنضال مصر في سبيل جلاء المحتل :

زحف الغرب على الشرق فلا ... تغفلي يا مصر عن سيف(صلاح)(٣٢)

وكان من الطبيعي ، ومثوى صلاح الدين في دمشق ، ان نجد نماذج كثيرة يربط فيها الشاعر بين تمجيده لدمشق واعتزازه بصلاح الدين، كما لاحظنا في الامثلة التي ذكرناها لشوقي وحافظ ابراهيم وغيرهما، او في قول خليل مردم بك (١٨٩٥ ـ ١٩٥٩) من قصيدة « دمشق » :

وغدا صلاح الدين دونك باذلا ... نفسا يضن بمثلها ليقيك (٣٣)

وقصيدة العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤) « تشتاق ايار نفوس الورد»(٣٤) التي يمجد فيها دمشق لما جمعته من مفاخر الدنيا والدين او مما يبدو من نقائض كعلمي البطولة والتصوف صلاح الدين وابن العربي :

دمشق في الارض على صورة ... لانعم الله على عبده
فيها من الرضوان ما يرتضي ... لمتعة العيش ومن بعده
دنيا ودين ومال لذي البأس ومن آل الى ضده
لاذ صلاح الدين في مجده ... بها ومحي الدين في زهده

وما جاء في بعض قصائد عدنان مردم التي تزدحم بما توحيه « دمشق » او « بردى » من صور الماضي ، يستلهم منها رؤية متفائلة لالوية صلاح الدين وهي تخفق بالامال او لسيفه مشهورا لتحقيق مكارم جديدة . كقوله من قصيدة « بردى » (٣٥) :

وكان من (ايوب) الوية ... خفقت بآمال تجاذبه
وارى صلاح الدين عن كثب ... شهرت لمكرمة قواضبه

او قوله في « دمشق » (٣٦) :

وارى صلاح الدين في ساحاتها ... يختال مزهوا امام القسطل
اعلامه بجناح نسر حلقت ... وسيوفه شهب تضيء وتعتلي

* * *

ـ ٤ ـ

صلاح الدين وفلسطين

واذا ما انتقلنا الى معالجة الشاعر للقضية العربية الكبرى : فلسطين ، فاننا نلاحظ ان « صلاح الدين » يستحيل الى « لازمة »شعرية مهمة يصح ان نشبهها بـ « الصيغة FORMULA التي تمثل عنصرا بارزا في بناء اللحمة او « الفكرة المتكررة : MOTIF التي تتسم بها بعض الاعمال والاتجاهات الادبية او الفنية . وقد اتخذت هذه « اللازمة » او الفكرة « الصلاحية » قوالب مختلفة اهمها الوقوف التقليدي على قبر البطل لاستنهاضه ، والدعوة الى التبرك بتربة المعركة الحاسمة « حطين » ، والبحث عن نظيره العربي المعاصر ، والايمان المتفائل بوجوده ، وخيبة التطلع اليه، او الاحساس بعقم البحث عنه(٣٧).

ولعل خير من يمثل الوقوف على قبر البطل شاعر فلسطين ابراهيم طوقان (١٩٠٥ ـ ١٩٤١) الذي اعد قبل اربعين عاما تقريبا قصيدته « حطين » بمناسبة اعتزام شوقي زيارة فلسطين ، مستهدفا اثارة شوقي الى الاسهام الشعري في معركة العرب ضد الاطماع الغربية في فلسطين .

والشاعر ـ بعد ان يذكر شوقي بما قاله في نكبة دمشق ـ يدعوه الى التأمل في آثار صلاح الدين ، واستلهام البطل :

عرّج على حطين واخشع ... يشج قلبك ما شجاني
وانظر هنالك هل ترى ... آثار(يوسف) في المكان
ايقظ (صلاح الدين) رب التاج والسيف اليماني
ومثيرها شعراء ايوبية الخيل الهجان

ثم يعيد الى الاذهان ما عرف به جيشه من أقدام ، وما انزله على الغزاة من ضربات حاسمة ادت الى انتصاره (٣٨) ، ليخلص من ذلك كله الى صورة معاصرة تتميز بملامح الهوان والتخاذل والتردد تجاه اخطار الصهيونية والاستعمار .

دكت صروح ما بنى ... امثالها في المجد بان
جلّ المصاب « ابا علي » ... فابك هاتيك المغاني
ذهب الذين عهدتهم ... لا يصبرون على الهوان
في مصر يطمع أشعب ... وهنا تبارى اشعبان
وهنا التخاذل في الشدائد ... والتشاؤم والتواني
والنفس يقتل عزمها ... طول التعلل بالاماني

واذا كان « طوقان » قد اشار الى البون الواسع بين مآثر صلاح الدين ، ومساوىء الوضع الفلسطيني او العربي قبل حلول النكبة ،فان الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري لجأ الى مقارنة مماثلة ، بعد حلول مأساة ١٩٤٨ ، تاركا لروح صلاح الدين ، لا الشاعر،دور المقارنة:

وروح من صلاح الدين هبت ... من الاحداث مقلقة الوساد
تساءل : هل اتت دول ثمان ... ضخام ما اتاه على انفراد ؟
وما اضفى الحديث على قديم ... وما القى الطريف على تلاد ؟
وما عند « الدهاة » من انتقام ... ومن اخذ بثار مستفاد ؟
وهل ضاقوا وهم كثر ذراعا ... بداهية نهضت بها دآد
مشيت بطيها عملا فطابت ... مواقعها ، وساروا باثاد
بلى كانوا ومن عادوا تبيعا ... وكنت « المستقل » ومن اعادي
ومعتدا وما تجدي حياة ... اذا خلت النفوس من اعتداد

وفي هذه القطعة من قصيدة الجواهري « تحية الجيوش العربية : فلسطين » (٣٩) تلميح ـ كما قال الشاعر نفسه ـ الى موقف البطل صلاح الدين في حماية فلسطين من الحروب الصليبية التي شارك فيها آنذاك عدد من الدول الاوروبية . وتعريض بالحكومات العربية التي لم تستطع ـ وهي مجتمعة ـ تحقيق تلك الحماية .

ومن الامثلة الاخرى التي تستنهض « صلاح الدين » معربة تارة عن ثقة الشاعر بظهور بطل مثله ، واخرى موحية بمرارة الانتظار، قول « القروي » في قصيدته « وعد بلفور » (٤٠)

يدعوك شعبك يا صلاح الدين قم ... تأبى المروءة ان تنام ويسهروا
نسي الصليبيون ما علمتهم ... قبل الرحيل فعد اليهم يذكروا

وقول جورج صيدح في « جهاد فلسطين »(٤١) (عام ١٩٣٨)

واهـا فلسطين كما غاز قهرت وكم جيش رددت عن الاسوار منهزم
حتـى لطمت بكف لا سـوار لهـا شعب بلا وطن ، جند بلا علم

. . . .

فاين سيف صلاح الديـن يردعهـم اما له خلف في العرب كلهم؟

ويعبر علي الجارم (١٨٨١ - ١٩٤٩) عن تقتـه بان العرب في صراعهم مع المعتديـن لا بد ان يجدوا ازرا في ميراثهم في فتى حطين كما جاء في قوله :(٤٢)

قلبي وفيض دموعـي كلمـا خطرت ذكرى فلسطين خفاق وهتان
لقد اعاد بها التاريـخ اندلسـا اخرى وطاف بها للشر طوفان
ميراثنا في فتى حطين اين مضى ؟ وهـل نهايتنا يتم وحرمـان ؟
ردوا تـراث ابينـا مالكـم صلـة به ولا لكـم فـي امرنا شان

وفي قوله من قصيدة « فلسطين » (٤٣) :

واسطـر من تواريـخ مخلـدة كانت لمجد بني الفصحى عناوينا
فقبّلوا ترب «حطين» فـان بـه دم البطولة من ايام حطينـا
ارض بذلنا بهـا الارواح غـاليـة داعين للـه فيهـا او ملبينا

وحينما يستعرض شفيق جبري « بطولات العرب » (٤٤) ، لا يجد مفـرا مـن استنهاض صلاح الدين ليرد عن الارض التي حماها بالامس مـا يـراد بهـا اليوم مـن سوء :

تلـك البطولات كالاهـرام راسخة فاين ما طمسوا منها وما هدموا
انهض ورتل صلاح الدين آيتهـا الاذن مصغيـة والعيـن تلتهم
جاؤا اليك بجيش يعصمـون بـه قبر المسيح فماصانوا ولا عصموا
لو كـان همهم قبـر المسيح لمـا نهـودت منهم ذريـة ظلموا
ايمنحون بنـي صهيـون تربتـه ويزعمون النفى ،هيهات ما زعموا

. . . .

محوتهـم وبطون الارض تكتمهـم في كل رابيـة عظـم لهم ودم
حطيـن قد غذيـت منهم منابتهـا فاخضوضر الشيخ والقيصوم والسلم

وفي مناجاة عدنان مردم بك لـ « بيت المقدس » تطلع حزين الـى حطين وفارسها ، يشارك الشاعر فيه المدينة الجريح :

اكنت غفـوت للتذكـار ملويـة بـاعنـاق
وهل اشجـاك من (حطين) رجـع صـدى لابـواق
وهل شـافتـك الويـة بهـا نصت لعمـلاق
دم مـا زال وابلـه علـى دمـن وآفـاق
اراك وجمـت كالمشدوه شـاخصـة باحـداق
أكـان شجـاك مبعثـه جـزازات بأعمـاق
وهـل شفـك ان اضحت ربـاك حمـى لفساق
اسيـت لربـع عبثـت بـه شـذاذ آفـاق
وليس به فتى يحمـي الذمـار وليس مـن واق

ويختتم الشاعر قصيدته ، والظلمة تحيط به ، بتساؤل متفائل يبحث فيه بلهجة خاليـة مـن الاسلوب الخطابي ، عـن سنى يشـع مـن حطيـن :

وقفت اسائـل الظلمـاء عنـك بدفـع اشـواقـي
أمـن (حطيـن) نور سنـا يشـع لعيـن مشتاق
فلومـا غابـر ، وأهل تاريـخ باشراق(٤٥)

ويقف خالد الشواف موقفا مماثلا عند زيارتـه للقدس عـام ١٩٤٥ (٤٦) ، وهو يرى ، انى تلفت ، معالـم مشرقة من تراث المدينة:

هنا وطئت فدمـا أحمد وجبريل اكرم من يصحب
تحـن لمعراجه مكـة وتهفو لمهبطـه يثـرب
هنا جال بين الصفوف (صلاح) كما انتفض الاسد المغضب

اما الشيخ عبدالغني الخضري ، من العراق ، فانه في وقوفه على «حطين» يهتدي بحكمـة ابي تمـام « السيف اصدق انباء من الكتب » ويدعـو قومه الى الالتزام بها ، والكف عن خداع النفس بسلاح الكلمـة العـاجـز :

فالحق للسيف والاقـلام عاجـزة فخلي نظم القوافي واتركي الخطبا
لم نقض بالخطب الغرا مـآربنـا وكم قضينـا بعضب صارم ازبـا
فاستوح حطيـن عن اسيافنا فلقد نسفن في حدّها الاطواد والهضبا
مذهب فيـه (صلاح الدين) منبعثـا كانـه النار لمـا لاقت القصبا
يسلّ في غسق الهيجا صوارمه فيحسب الخصم من انصاره الشهبا(٤٧)

ان الامثلة التي ذكرناها تدل بوضوح على ان الشاعر في تلميحه الى (صلاح الدين) يستهدف ،قبل كل شيء ، تذكير قومه بصفحـة بطولـة مشرقـة مـن ماضيهم ، والدعوة الى تجديدها في معركة اليوم ، غير انه لا يقف عند هذا الحد بل يضفي على تلميحه طابعا تهديديا يقصد به الاعداء ، اي ان « الفكرة الصلاحية » تؤدي وظيفة ذات جانبين : استثارة الهمم ، وتهديد العدو بما آلت اليه حملات عدوانية سابقة .

ويصوغ الشاعر هذا التهديد بلغـة مؤمنة ، تغلب عليها مسحـة الخطابة ، ولا تخلو من اسراف في التفاؤل ، او تهويل لما يهيء الواقـع من عوامل الانتصار ، كقول الشاعر السعودي محمد حسن عواد:(٤٨)

سنعيد لليرمـوك يومـا ثانيـا في قلب تل ابيب عـودة موغـل
او يوم « حطين » يضم عنـاصرا شتى ويبرز ميـزة المستسـل

او قـول ابـي سلمى فـي قصيدة « احرقنا الحمر » (٤٩):

ان جيش التحريـر جيش فلسطيـن تنـادت فرسانـه والنسـور
وجناحـاه فـي الشـآم جناح وعلى غـزة الجناح الاثيـر
جيش حطيـن جيشنـا يزحف اليـوم فقـد آن ان توفى النـذور

او ما جاء في قصيدة خالد الشواف « الوتر والثأر »(٥٠) التـي قالهـا بعد صدور قرار التقسيم :

كلما جـال عليهـا بطـل هتفت ان صلاحا قد اعيـدا
فارتقب يا موطن المجد غـدا لترى خلف الدجى الصبح الوليدا
وترى (حطين) فـي امجادها عرس النصر الذي عاد جديدا

وايمان الشاعر بأن (صلاح الدين) يبعث حيا او ان نداءه يلبى في ارجاء الوطن العربي يتكرر في امثلة واكبت الاحداث التي سبقت او تبعت خلق اسرائيل بفترة قصيرة كما يبدو ذلك واضحا في النماذج التاليـة :

يفديك كل فتى في قلبه قبس من نور مجدك تياه على الشهب
لبى نداء صلاح الدين زأرتـه في القدس يسمعها الصّمان في حلب
(الياس فرحات يخاطب فلسطين) (٥١)

صحت العروبة من عميق سباتها وتحفزت تحت البنود شبـول
جمعتهم الجلى ووحد صفهـم ثأر يزمجر في الصـدور جليل
يزهو صلاح الدين في ابرادهم ويجول في اسيافهم ويصـول
(زكي قنصل في قصيدة «خرافة السلام)) (٥٢)

أروت فلسطين من تاريخها ديم بل ادمع من عيون الوحي تنهمر
دم الشهادة في آفاقها شفـق يعنو له الفجر والامساء والبكر
أمدّ منه صلاح الدين شعلتهـا فزانت الدهر من اضوائها غرر
ما حقها هجعة الوانين تؤيسها بل حقها الامل الوثاب والسهر

ـ التتمة على الصفحة ٧٣ ـ

صلاح الدين الايوبي

ـ تتمة المنشور على الصفحه ٢٢ ـ

(محمد الشريفي : فلسطين والوحدة العربية) (٥٣)

ولاول مرة
احسست بصوت (صلاح الدين الايوبي)
في صوتك
في كلماتك ذات الازهار
كنجوم شقراء
تتساقط في ايدي (مئة المليون مواطن)
فنقبلها اعيننا ، اودية النور
وتعانقها اضلعنا ، ابواب الروح
في خطوك حممة خيول (صلاح الدين)

(علي صدقي عبد القادر : «العروبة العظمى») (٥٤)

ولا يفقد الشاعر هذه الثقة عندما يشهد ما يحل بشعبه من نكبات . بل تزداد لفته اصرارا ، ويأبى الا ان يرى صورة «فلسطين» يعود اليها العرب ظافرين ، ويبدأ منها تاريخهم الجديد ، كما يتجلى ذلك في قصيدة الشاعر كاظم جواد «في ظهيرة الفجر» التي اهداها الى «جيش عدنان المالكي يوم طبريا ويوم فتك الجيش الصهيوني الوحشي بعشرات الابرياء العزّل» (٥٥) .

ورفاقنا الموتى ، واغنية الجنود الصامدين :
تطفو على ماء البحيرة حيث اجنحة الطيوب
ليلا على الموج الشذي تشع رؤيا ميسلون
«سنعود يا حطين» حيث ترن ملحمة الزمان
ويجلجل التاريخ «من حطين ازحف من جديد»
لا بد يا ليل الاباطيل الكسيحة ان تعود
«سنعود يا حطين» حيث ترن اغنية الزمان
ويردد التاريخ «من حطين ابدأ من جديد»

او قول الشاعر المهجري موسى الحداد يضع امام المرأة العربية بعض صور الماضي ليحثها على مواصلة الكفاح بالرغم مما حل بقومها من تشريد ، وما تلمسه لدى الحكام من تخاذل :

يا ابنة المجد والعروبة هبي واذكري خيبرا واسد الملاحم
واذكري القدس يوم صلاح الدين فيها فلّ الجيوش الخضارم
سرّحي الطرف وانظري في البوادي تجدي اللاجئين شبه السوائم
وبنوا امهم عن الثار لاهون سدى باجتماعهم في العواصم (٥٦)

ويلجأ توفيق زياد ، احد شعراء المقاومة في الارض المحتلة ، الى «صخرة حطين» كرمز من رموز الصمود في قصيدته «السكر المر» (٥٧) التي يناجي فيها فلسطين :

أنا ابنك خلفتني هاهنا المأساة
عنقا تحت سكين
اعيش على حفيف الشوك
في غابات زيتوني

. . .

وادمي وجه مغتصبي
بشعر كالسكاكين
وان كسر الردى ظهري
وضعت مكانه صوانة
من صخر حطين

كما يعرب الشاعر اللاجيء هارون رشيد عن ايمانه بالنصر المرتقب :

يا فلسطين اراها وثبة في غد ترعد بالكون انتشاء
وصلاح الدين في فيلقه يرجم البغي انتفاضا وارتواء
وارى حطين من فرحتها زحفت تلقاه حبا ووفاء

ويعبر الشاعر نفسه مرة اخرى ، بعد نكبة ١٩٦٧ ، عن اصرار الفلسطيني على رفض كل تساوم او حل يراد به محو كيانه ، واذابة شخصيته ، مصغيا ابدا ـ برغم اصداء الطواحين التي تلاحقه بالمساومات ـ الى صوت صلاح الدين ، في اعماق اعماقه ، يستمد منه ما يشد ازره في معركة التحرير :

فلسطيني وفي اذني
اصداء الطواحين
سنينا وهي تلعنني
وتشتمني .. وتغويني
تساومني على حل
وتدعوني لتوطين
وباسمي دائما تهدر
في كل الميادين
ولكني فلسطيني
انا عرقي ونكويني
صلاح الدين ..
في اعماق اعماقي .. يناديني
وكل عروبتي للثار
للتحرير تدعوني
ورواياتي التي طويت
على ربوات حطين (٥٧ ب)

غير ان هذه اللغة المتفائلة المؤمنة لا تسلم من مرارة الاحساس بخيبة التطلع لمن يقوم مقام صلاح الدين . وهذا اللون من الاحساس يتخذ صورا مختلفة اولاها البحث عن خلف له ، في صيغة تساؤل ، قد يقصد به الحث او التحضيض كتساؤل جورج صيدح :

فاين سيف صلاح الدين يردعهم اما له خلف في العرب كلهم؟

او الايحاء بالانتظار المأساوي الطويل للمنقذ كما ورد في قول البياتي (٥٨) :

رأيت مجد فقراء الارض في الفيتنام
وفي خيام اللاجئين : سيد الآلام
منتظرا خير صلاح الدين
وصيحة الفرسان في حطين

والصورة الثانية تعرب عن حالة تذمر او فورة غضب مصدرها ما يحسه الشاعر من موقف لا بطولي لدى الحكام ، او تظاهر مزيف بدور المنقذ او خذلان روح صلاح الدين في سبيل مصلحة ذاتية كقول الياس فرحات حاقدا على المسؤولين عن نتائج الحرب الفلسطينية ١٩٤٨ : (٥٩)

واذا لقيت ذوي الجلالة من ساداتنا المتحكمين بنا
وذوي السمو وكل ذي لقب خاو كصاحبه قليل غنى
فاهزأ بالقاب لهم سمنت وكرامة هزلت اسى وضنى
ديست باقدام اليهود فيا شم الانوف استنشقوا الدرنا
أمهدمين بسوء دخلتهم يوم الكريهة ما (صلاح) بنى

او قول البياتي : (٥٩ ب)

باعوا صلاح الدين
باعوا درعه وحصانه ،
باعوا قبور اللاجئين

او كما جاء في قصيدة محمود درويش «انا آت الى ظل عينيك» (٦٠) ـ وهي من قصائد ما بعد ١٩٦٧ :

كذبوا ! لم يكن جرحنا غير منبر
للذي باعه .. باع حطين .. باع السيوف ليبني منبر
نحو مجد الكراسي
انا آت الى ظل عينيك آت

من غبار الاكاذيب آت
من قشور الاساطير آت

ولعلنا لا نعدو الصواب ان اعتبرنا قصيدة هارون رشيد «اغنية صليبية» (سفينة الغضب ١٣٥ ـ ١٤٣) من المحاولات القليلة الناجحة في استعمال «الفكرة الصلاحية» اطارا يجسد الاحساس العربي بالخيبة في حزيران ١٩٦٧ ، ومما اسهم في نجاح الشاعر اعتماده على تخيل ما يمكن ان يدور في مخيلة الصليبيين الجدد من مشاعر الانتصار والزهو ، وقد عادوا الى اغتصاب الارض التي تضم قبر من حماها بالامس ، من غير ان يجدوا ما يدخل في قلوبهم الرعب او يردعهم سوى اسم البطل صلاح الدين وذكراه . ولا شك في ان هذا الاسلوب الايحائي غير المباشر اكثر نجاحا وفاعلية من اللهجة الخطابية الصارخة في تصوير وقع الهزيمة ، ونقل مشاعر الاسى او النقمة على من قاد العرب الى محنتهم الحاضرة .

لقد عدنا
صلاح الدين
قد عدنا
وجددنا
ليالي الغزو
جددنا
صلاح الدين
لو تسمع
خطانا
انها تقرع
ضريحك
حيثما تهجع
لتروي
حقدها
تشبع
فانت واسمك
الاروع
يظل امامها
يلمع
فيخضع كبرها
يركع
صلاح الدين
قد عدنا
صلاح الدين
لو تسمع

وبعد هذه الفاتحة، يكرر صوت الفزاة زهوهم بالعودة، وتساؤلهم عن صلاح الدين ، ويشير الى سرعة احتلالهم اراضي موطنه ، بكتائب لا تصد وامنيات لا تخيب ، ويوحي بما يضمرونه من حقد على قومه ، وما يتبعونه من اساليب شريرة في سبيل تحقيق مآربهم .

صلاح الدين
جئنا مصر
جئنا الشام
بأسرع من خطى الايام
نـدق
فتفتح الابواب
لنـا
وتصفق الاعتاب
ويهدر جيشنا الغلاب
برايات الصليبيين
تسأل عن صلاح الدين
وتبحث عنه في حطين
عساه يزلزل الاغراب
بصوت هادر صخاب
يذكرهم بما قد كان
وأنت هنا
صلاح الدين
سجين القبر والجدران
صلاح الدين يا انسان
ويا من كرّم الانسان
لقد عدنا
كما كنا
نمزق راية الايمان
ونرفع راية الطغيان
صلاح الدين قد عدنا
نقض مضاجع الموتى

ويختار الشاعر خاتمة لقصيدته سطورا تفصح عن خوف الاعداء من اسم البطل ، ولعله تعمد ذلك ليوحي بأن العدو ، بالرغم من انتصاره ، ما زال يخشى ان يلقى بطولة كبطولة صلاح الدين ، وان للعرب ان يقرروا ما اذا كان لهذا الخوف اي مبرر .

وسرنا في فجاج الصمت
يرعبنا ويشقينا
يذكرنا فيرهبنا
يلقى روعه فينا
نخاف اسمك
انى كان
مكتوبا ومدفونا
نخافك يا صلاح الدين
خوفا راسخا فينا

اما الصورة الثالثة للاحساس بالخيبة ، فتحمل ثورة الشاعر على تحكم الماضي في سلوك قومه ، ورفضه للرؤية الخلفية كالتغني بأمجاد الامس وفي مقدمتها صلاح الدين ، كما تنطوي على ذلك قصيدة سميح القاسم «الميلاد» (٦١)

ابي .. لا كتبنا الملقاة تحت نعال هولاكو
ولا فردوسنا المردود فردوسا الى اهله .
ولا خيل الصليبيين
ولا ذكرى صلاح الدين
ولا جندينا المجهول في حطين
تشد خطاي ، للانقاض ، للمنفى
الى ان يقول :
فلا تغضب
ولا تعتب
اذا اغلقت ابوابي بوجه الأمس
اذا ابدلت اثوابي ، وغادرت الرحاب الدمس
وان ودعت ازهاري
وان قبلت نصب الرمس
لآخر مرة في العمر نصب الرمس

او كما يمكن ان يستشف من قصيدة سعدي يوسف «تأملات عند اسوار عكا» (٦٢) التي قالها بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، حيث يلجأ الى اطلاق اسم صلاح الدين على من يريد التخلص من التسميات المقترنة بمأساته :

اومن ان النار قد تحرق العار الذي فيّ وقد تخبو
اومن ان البغض
اعظم ما يمنحه الحب

كرهت سيفي وذراعي على اسوار عكا
وكرهت الجميع

غمست حتى مقلتي في النجيع
احرقت اسمائي ، وها انني
ادعى صلاح الدين ... ادعى الجميع

★★★

— ٥ —

صلاح الدين والبطل العربي المعاصر

ومن جوانب الصيغة او الفكرة الصلاحية في شعرنا الحديث ، تشبيه صور بطولية معاصرة بصلاح الدين ، سواء كانت متصلة بمن يملك زمام الحكم في بلد عربي او باشخاص معينين اصبحت بطولتهم مضرب المثل ، او ببطولة جماهيرية عامة منغير تحديد . ومن الامثلة على اقتران صلاح الدين بالبطولة العامة قول الشاعر زكي فنصل الذي اشرنا اليه سابقا :

صحت العروبة من عميق سباتها — وتحفزت تحت البنود شبول
يزهو صلاح الدين في ابرادهم — ويجول في اسيافهم ويصول

ويماثل هذا التفاؤل برؤية صلاح الدين مجسدا في كل جندي يدافع عن حق العرب في فلسطين ، ما جاء في قصيدة الشاعر هارون رشيد «انه النصير» التي تؤكد على ان الجنود لم يهزموا في حرب ١٩٦٧ (سفينة الغضب ٢٣-٢٤) :

قد كان كل واحد
منهم صلاح الدين
احبة اخوة
اصراره وروحه
وعزمه المكين
وكل ما في صدره
من تأره الدفين
تاريخه امجاده
خطاه في حطين

وهنالك نماذج اخرى عرضناها لهذا الاقتران غير المحدد بشخص، كما وردت في قصائد الشعراء : خالد الشواف وبدر شاكر السياب، وعلي صدقي عبد القادر . وقد لاحظنا كيف ان الشاعر القروي يربط بين بطل عربي معاصر كسلطان الاطرش ، وصلاح الدين . اما الامثلة التي تتصل بالحكام العرب فانها تخص الرئيس عبد الناصر باوفر نصيب (٦٣) ، سواء كان ذلك في سياق عربي ، ام مصري ، ام فلسطيني ، منها اشارة عامر محمد بحيري في«جيش العروبة» ـ قالها في ذكرى انحاد الجيش العربي (١٩٥٩) (٦٤)

يا دمشق العلى ، وقاهرة البأس ، كلا البلدتين ام الحواضر
جددت عهد خالد وصلاح الدين ، روح الفداء في عهد ناصر

وقول عبد الكريم الدجيلي في قصيدته «الامة العربية» التي قيلت في حفلة تكريم بنت الشاطيء في بغداد عام ١٩٥٨ :

يا جمالا فتن العرب به — ودليلا في الدياجي لا يضاهى
وسليل المشرفيات التي — من صلاح الدين مستحوذا شاها(٦٥)

وقريب من ذلك تلميح الشاعر انور العطار في قصيدته «فلسطين» التي القاها في مهرجان الشعر الثاني بدمشق عام ١٩٦٠ : (٦٦)

يرف على «حطين» فجر جهادنا — كان صلاح الدين منا على قرب
أليس جمال العرب عدل صلاحنا — وقد شادما قد شاد في الشرق والغرب

وينتهز خالد الشواف العدوان الثلاثي (١٩٥٦) ليمجد مآثر الرئيس عبد الناصر في خدمة القضايا العربية ، وما قام به من دور في ردع المعتدين على مصر ، ويوحي اليه بأن فلسطين تنتظر على يديه ردعا مماثلا ، فتنال الخلاص كما نالته من قبل على يدي صلاح الدين :

يا جمالا نسخ القبح الذي — اولد النكبة مولودا سفاحا
خالدا كنت بمصر فلتكن — يوم تدعوك فلسطين (صلاحا)(٦٧)

وتتكرر هذه الرابطة الثلاثية : فلسطين وصلاح الدين وعبد الناصر في نماذج شعرية اخرى كقول الشاعر غريب محمد غريب من قصيدته «الناصر صلاح الدين» :

باسم الصليب تغلبوا فتجمهروا — من كل حدب مشرق او مغرب
لكنه منهم بـراء انما — جاؤا ابتغاء نملك وتعصب
فخرجت (يوسف) والتقيت بجمعهم — فدحرتهم لله ليس لمنصب
لم افتقدك فانت حي بيننا — في شخص عبد الناصر المتوثب
القدس في شوق اليك فلبها — فالعار بربع في ثراها الطيب(٦٨)

وما جاء في قصيدة «فلسطين» لمحمد مصطفى الماحي :

ارى في الافق اني سرت نارا — تضيء فنهتدي دنيا ودينا
صلاح الدين اوقدها وهذا — (جمال) شنها حربا زبونا (٦٩)

او قصيدة الشاعر نفسه «زيارة الرئيس لمدينة دمياط» (١٩٦٠) :

دمياط تيهي بالفتى المقدام — بطل العروبة ناصر الاسلام
واستبشري خيرا بمقدمه ففي — لمحانه قبس من الالهام
هذا صلاح الدين عاد مكافحا — عن مصر في غزواته والشام
هذا صلاح الدين والدنيا معا — ومحطم الاغلال والاصنام (٧٠)

واغلب الظن ان الشاعر سيرجع هنا ذكرى زيارة صلاح الدين التاريخية لدمياط عام ١١٧٧ متفقدا اسطوله فيها بعد عودته من الشام .

ونجد في شعر هارون رشيد نماذج كثيرة تجعل من الرئيس عبد الناصر القائد الذي يقود العرب الى تحرير فلسطين ، ويرد في بعضها اسمه مقترنا بالتلميح الى حطين بوجه خاص كقول الشاعر :

ان حطين غدا موعدنا — موعدا للثأر رعاف الدم
وجمال رافع رايتنا — في روابي القدس حول الحرم(٧١)

او قوله من قصيدة «قسم» :

سيكون في حطين موعدنا على فم النضال
جيش كبير واحد ، يجتث ما صنع الضلال
خفاقة راياته يزهو بفائده جمال (٧٢)

او تلميحه التالي :

بعبد الناصر العربي — سوف توحد العرب
وفي حطين موعدنا — ونصر الله والغلب (٧٣)

ولقد بلغ التأكيد على هذه العلاقة بين صلاح الدين والرئيس عبد الناصر حدا دفع صاحب مجموعة «المشاعل» ـ كامل امين ـ الى نحت تسمية تعبر عنها : (جمال الدين الايوبي) ، واستعمالها عنوانا لقصيدة تشهد بأوجه الشبه : (٧٤)

رجعت (صلاح الدين) من بعد غيبة — بروح (جمال) مثلما يرجع الفجر
طوى جسمه في الشام قبر وروحه — بجسم (جمال) عاش لم يطوه القبر
فما زال فوقي من (صلاح) ونسره — جمال ونسر رمز رايته النسر

ويلمح الشاعر في البيت الاخر الى ان النسر كان رمزا لصلاح الدين كما هو اليوم رمز الثورة في العربية المتحدة .

ان هذا العرض السريع للصيغة او الفكرة «الصلاحية» في الشعر العربي الحديث لا يدّعي لنفسه الشمول لعدة اسباب اهمها عدم استطاعتي الوقوف ـ اثناء اعداد الدراسة ـ على نصوص مهمة اخرى لعدد من الشعراء كالكاظمي ومحمود صادق ، ومنها تجنبي تحليل كثير من النصوص تحليلا فنيا او اصدار احكام على قيمتها وبينها ما

يفتقر الى مقومات العمل الفني الناجح . غير ان ذلك لا يمنعنا من تحديد المعالم البارزة للفكرة التي استهدفها هذا العرض . لقد دلت النماذج الشعرية على ان استخدام الشاعر لصلاح الدين بدأ في اطار الدين الاسلامي كما لاحظناه عند شوقي وارسلان ، وامتد الى القضايا العربية (٧٥) ، ثم اصبح متلاحما مع مأساة فلسطين اكثر من اية مشكلة اخرى ، ولكن اختلاف مجالات استخدامه لم يجرّده تجريدا تاما من دلالته الدينية ، بل ظل عدد غير قليل من الشعراء يلمحون اليها لاسيما اولئك الذين يعتمدون في رؤيتهم الشعرية على الاسلام والعروبة كمحمد مصطفى الماحي وخالد الشواف وعدنان مردم. ولقد كان من الطبيعي ان يستعيد الشاعر ذكرى البطل في مواضع عاشها تاريخيا كالمعارك التي خاضها او المدن التي اقترنت به في حياته وموته كحطين والقدس ودمشق وعكا ودمياط وان كان لبعضها النصيب الاكبر من امثلة الاستشهاد بالبطل . واذا كان الشاعر قد اتخذ بطولة صلاح الدين ركيزة لتفنيه ، فانه لم يغفل الجانب الخلقي من سلوك البطل كتسامحه وانسانيته وما يروى عنه من ترفع عن الدنايا وزهد في المجد الشخصي كما ان الشاعر لم يهمل التلميح الى ان جهاد صلاح الدين لم يكن موجها ضد دين خصومه بل ضد سياستهم ومطامعهم في فلسطين . وقد وضحت هذه الدراسة كذلك مدى اهتمام الشعراء المعاصرين به كرمز للخلاص على اختلاف معتقداتهم الدينية واتجاهاتهم السياسية ، اي ان صلاح الدين – بالرغم من الجدل التاريخي حول اصله القومي او ايثاره مذهبا اسلاميا معينا على اخر – اصبح بالنسبة للشاعر العربي الرمز البطولي الذي يسمو على الاعتبارات الدينية او السياسية ، وليس في ذلك من غرابة ، فقد استحال من قبل بفضل خصاله الايجابية الى مثال الفارس او البطل الذي يمجد حتى في الآداب الاوربية ، واخص بالذكر الايطالية والفرنسية . ولا شك في انه اهل لما لقي او يلقى من اهتمام شعرائنا في معالجتهم لقضايا معاصرة ، غير ان طريقة التغني به – كما وردت في كثير من الامثلة – تكشف بعض الجوانب السلبية في رؤية الشاعر العربي اهمها اسرافه في التطلع المتفائل الى معجزة البطل الفرد ، من غير كبير اهتمام بالاساس الجماعي او الشعبي ، في البحث عن طريق الخلاص من محنة العرب الحالية . ويبدو ان الشاعر بدأ يعي سلبية هذا التطلع بعد حرب ١٩٦٧ ، ان جاز لنا ان نتخذ دليلا على ذلك ما ورد في نماذج السنوات الثلاث الاخيرة من ميل الى العزوف عن تشبيه قائد عربي معين بصلاح الدين .

صالح جواد العظمة

مراجع وتعليقات

(١) انظر مثلا اشادة الشعراء بعظماء العرب في كتاب: احمد محمد الحوفي . وحدة الثقافة والتاريخ في الشعر الحديث (القاهرة: ١٩٦٥) ٤٢–٥٦ ، والدلالة القومية لهذه الاشادة : عمر دفاق . الاتجاه القومي في الشعر المعاصر (القاهرة : ١٩٦١) ٣٩٠–٣٩٤

(٢) للوقوف على بعض المطولات انظر : سعد الدين محمد الجيزاوي : العامل الديني في الشعر المصري الحديث (القاهرة: ١٩٦٤) ٥٢٠–٥٢١ ، واحمد محمد الحوفي : التراث الروحي والشعر الحديث (القاهرة : ١٩٦٦) ٣٩–٤٦ ومحمد زغلول سلام : القومية العربية في الادب الحديث (القاهرة : ١٩٥٩) ٩٦–٩٧ وجمال الدين الآلوسي «المطولات او شعر الملاحم» الاقلام (البغدادية) (٤ كانون الاول ١٩٢٦) ٣٤–٤٤

(٣) يستطيع القارىء ان يقدّر الاهمية التي نالها صلاح الدين في دراساتنا الحديثة لاسيما بعد خلق اسرائيل ، بملاحظة ما صدر من البحوث الخاصة به ونورد على سبيل المثال ما يلي : محمد عطية الابراشي: صلاح الدين الايوبي (القاهرة: ١٩٥٨)، محمد فريد أبو حديد: صلاح الدين الايوبي وعصره (القاهرة : ١٩٢٧) وانظر كتابه صلاح الدين الايوبي البطل العربي الذي انتصر على الغرب (القاهرة: ١٩٥٨)، ابراهيم الابياري : البطل الخالد : صلاح الدين والدولة الايوبية (القاهرة : ١٩٦٢) ، احمد بيلي : حياة صلاح الدين الايوبي (القاهرة : ١٩٣٦) ، حبيب جاماتي : الناصر صلاح الدين (القاهرة: ؟ ١٩٦٢) ، عبد اللطيف حمزة: صلاح الدين بطل حطين (القاهرة: ١٩٣٧) وانظر ما اخرجه بعد ذلك : صلاح الدين : سلطان مصر وسوريا (القاهرة : ١٩٤٤) وصلاح الدين بطل حطين (القاهرة : ١٩٥٨) ، احمد علي خليفة : صلاح الدين الايوبي : بطل موقعة حطين (القاهرة : بلا تاريخ) ، سامي الدهان : صلاح الدين الايوبي (القاهرة : ١٩٦٠) ، احمد عبد الجواد الدومي : صلاح الدين الايوبي (القاهرة : ١٩٥٨) ، محمود محمد الرساوي : من روائع التاريخ العسكري العربي : يوم حطين (القاهرة : ؟١٩٦٢) ، محمد رضا : بطل حطين (القاهرة : بلا تاريخ) ، جمال الدين الرمادي: صلاح الدين الايوبي (القاهرة : ١٩٥٨)، نظير حسان سعداوي : جيش مصر ايام صلاح الدين (القاهرة: ١٩٥٦)، عبد العزيز سيد الاهل : ايام صلاح الدين (بيروت : ١٩٦١) ، ابراهيم علي طرخان : الناصر صلاح الدين وتحرير القدس (القاهرة : ١٩٦٨)، سعيد عبد الفتاح عاشور : الناصر صلاح الدين (القاهرة : ؟ ١٩٦٥) ، عبد القادر عيد : صلاح الدين الايوبي والقومية العربية (القاهرة : ١٩٦١) ، فدري فلعجي : صلاح الدين الايوبي : رجل غير وجه التاريخ ط٣ (بيروت : ١٩٥٦) ، وانظر كتابه : صلاح الدين الايوبي : قصة الصراع بين الشرق والغرب (بيروت : ١٩٦٦) ، عبد المنعم ماجد : الناصر صلاح الدين الايوبي ط ١ (القاهرة : ١٩٥٨) و ط ٢ منقحة (بيروت : ١٩٦٧) ، ومحمود عزت موسى : الناصر صلاح الدين (القاهرة : ١٩٥٨) ، ومحمد الطيب النجار : الصليبيون وصلاح الدين (القاهرة : ١٩٦٢) اسعاف النشاشيبي : البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد احمد شوقي (القدس : ١٩٣٦) ومصطفى الوكيل: صلاح الدين الايوبي (القاهرة : ١٩٣٨) . ومن الجدير بالذكر ان صلاح الدين كان مصدر وحي لاعمال ادبية اخرى كمسرحية نجيب سليمان الحداد : صلاح الدين الايوبي (الاسكندرية : ١٨٩٨) ، ومسرحية فرح انطون : السلطان صلاح الدين التي كتبت عام ١٩١٤ ونشرت في القاهرة ١٩٢٣ ، ورواية جرجي زيدان التاريخية : صلاح الدين ومكائد الحشاشين (القاهرة : ١٩١٢/١٩١٣) وحوارية انيس المقدسي «صلاح الدين مثال البطولة النبيلة» في مواكب النور (بيروت : بلا تاريخ) ٢١٥ – ٢٢١

(٤ أ) من المراجع الحديثة التي تتناول ما قيل في صلاح الدين من شعر في العصر الايوبي نذكر ما يلي : من النقد والادب ح ٣ (القاهرة : ؟١٩٦) ١٧٥–١٩٤ لاحمد احمد بدوي ، وانظر كتابه : صلاح الدين الايوبي بين شعراء عصره وكتابه (القاهرة : ١٩٦٠) ، وعبد اللطيف حمزة : ادب الحروب الصليبية (القاهرة : ١٩٤٨) ومحمد زغلول سلاّم : الادب في العصر الايوبي (القاهرة : ١٩٦٨) ومحمد سيد كيلاني : الحروب الصليبية واثرها في الادب العربي في مصر والشام (القاهرة : ١٩٤٩) .

(٤ب) ليس شوقي باول شاعر لمح الى صلاح الدين في الفترة الحديثة ، فقد سبقه آخرون كالشاعر صالح مجدي ، المصري المولد، المكي الاصل ، (١٨٢٥ – ١٨٨١) الذي اشاد ببطولة صلاح الدين وتمنى ان يتشبه به في قصيدة اراد بها استثارة همم المصريين لمقاومة النفوذ الاجنبي . راجع محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ج١ (القاهرة : ١٩٦٢) ١٣٧–١٣٨

(٥) ماهر حسن فهمي : شوقي : شعره الاسلامي (القاهرة : ١٩٥٩) ١١٩–١٢٠ لقد اشار المؤلف الى ثلاثة مواضع ذكر فيها شوقي صلاح الدين الايوبي ، واهمل اشارات اخرى وردت في قصائده ، كقصيدة

«البحر الابيض» ، حيث يقول :

سيد الماء كم لنا من (صلاح) و(علي) وراء مائك ذكرى

مشيرا الى صلاح الدين ومحمد علي باشا ، وقصيدته الشهيرة في نكبة دمشق ، وقصيدته «الاندلس الجديدة» التي يشبه فيها غلبة البلغار على ادرنه (١٩١٢) بحملة الصليبيين ، و«تحية لضيف عظيم» التي وردت في : الشوقيات المجهولة محمد صبري ج١ (القاهرة : ١٩٦١) ٣٠٠-٣٠١.

(٦) الشوقيات ج١ (القاهرة : ١٩٦١) ١٧-٣٣ ، وانظر ما ورد بشانها في كتاب فهمي المذكور في اعلاه ، وعلي النجدي ناصف : الدين والاخلاق في شعر شوقي ط٢ (القاهرة : ١٩٦٤) ٢٣٩-٢٤١ .

(٧) الشوقيات ج٤ (القاهرة : ١٩٦١) ٥٦ .

(٨) محمد سامي الدهان : الناصر صلاح الدين الايوبي ص ١٤٢ . وقد ذكر الاستاذ الدهان في اشارته الى هذه الالتفاتة وما تبعها من مظاهر الاحترام انها اثارت مشاعر شعرائنا ، ولكنه لم يذكر غير شوقي .

(٩) محمد صبري : الشوقيات المجهولة ١٨٢/١ - ١٨٣

(١٠) المصدر نفسه ٣٠٠ - ٣٠١

(١١) الشوقيات ٢٣٤/١

(١٢) الشوقيات ١١٩/٣

(١٣) وشوقي يكرر هنا ، بصيغة اخرى ، ما قاله قبل ذلك بسنوات كثيرة على لسان محاوره «الدرويش» : «فوالله ما تجمل تاريخ المسلمين بمثلك يا صلاح الدين» . انظر الشوقيات المجهولة ١٨٣/١ .

(١٤) لقد عبر شوقي عن اعتزازه بصلاح الدين في مواضيع اخرى كاشارته اليه في قصيدتي «البحر الابيض» و«الربيع ووادي النيل».

(١٥) المقتطف ٢٧ (١٩٠٢) ٢٢٦-٢٣٢ ، ونشرت كذلك في كتاب الشاعر: ذكرى موقعة حطين وديوانه . راجع احمد الشرباصي . امير البيان شكيب ارسلان ج١ (القاهرة : ١٩٦٣) ص ٢٨٨ . ذكر الشرباصي ان عدد ابياتها مائة واربعون بيتا ، بينما حدد العدد بمائة وخمسين في رواية الاستاذ سامي الدهان . محاضرات عن الامير شكيب ارسلان (القاهرة : ١٩٥٨) .

(١٦) مارون عبود : رواد النهضة الحديثة (بيروت : ١٩٥٢) ص ١١٣ .

(١٧) راجع ما جاء بشان ذلك في تعليق ارسلان نفسه على القصيدة في كتابه : شوقي او صداقة اربعين سنة (القاهرة : ١٩٣٦) ١٩٧-٢٠١ ، وكتاب الشرباصي ج٢/٥٤٢ - ٥٤٩

(١٨) الشرباصي ص ٥٩٩ .

(١٩) مارون عبود : رواد النهضة ١١٢-١١٣ ، الدهان : محاضرات ٧٧ - ٧٨ .

(٢٠) اعتمدت على النص المنشور في كتاب : المطالعة الوافية مهدي علاّم وآخرون ج٣ (القاهرة : ١٩٦٠) ٣٢١-٣٢٣

(٢١ أ) خالد الجرنوسي : قصص اسلامية (القاهرة : ١٩٦٣) ٩١ - ٩٤ .

(٢١ب) لقد اشار الاستاذ عبد الله كنون الى هذا الدافع في معرض الحديث عن النزعة الدينية في الشعر العربي المغربي قائلا : «اما الضرب على وتر الدين فانه يمثل وجهة نظرهم الى انطلاقة الاستعمار الاوربي في القرن الماضي التي لم يكونوا يرون فيها الا استمرارا للحروب الصليبية ، وهي وجهة نظر لم تكن بعيدة عن الصواب . الم يقل الجنرال غورو لما دخل دمشق بعد الحرب العالمية الاولى وهو واقف على قبر صلاح الدين : صلاح الدين ! نحن هنا ؟ وكذلك اللورد اللنبي الم يقل حين دخل القدس اثناء الحرب المذكورة: الان انتهت الحرب الصليبية ؟ ان ادباءنا ليسوا باقل غيرة دينية من هؤلاء الضباط الكبار الذين يمثلون اعرق الامم حضارة في القرن العشرين» انظر كتابه : احاديث عن الادب المغربي الحديث (القاهرة: ١٩٦٤) ٢٦-٢٧ .

(٢٢) ديوان الشبيبي (القاهرة : ١٩٤٠) ٣٣-٣٨ ، يوسف عز الدين : في الادب العربي الحديث (بغداد : ١٩٦٨/٦٧) ص ١٣٣ ، ورفائيل بطي : الادب العصري في العراق العربي ج١ (القاهرة: ١٩٢٣) ١١٦ - ١١٨ .

(٢٣) ديوان الرصافي ط٦ (القاهرة : ١٩٦٣) ٤٣١-٤٣٢ . يرى الاستاذ عبد القادر المغربي في مقدمة الديوان (ص ك) ان الرصافي يستنهض الايوبي ليرى ما فعله «الجنرال اللنبي» في بيت المقدس ، وسياق القصيدة يدل على ان تصريحات «غورو» الاستفزازية كانت هدف الشاعر . لاحظ تصريح غورو في تعليقنا رقم (٢١ب) .

(٢٤) عزيزة مريدن : القومية والانسانية في شعر المهجر الجنوبي (القاهرة : ١٩٦٦) ص ٢٩١ وانس داود : التجديد في شعر المهجر (القاهرة : ١٩٦٧) ص ٣٣٧

(٢٥) مريدن : المصدر المذكور ٢٦٧-٢٦٨ ، وانيس المقدسي : الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ط٣ (بيروت : ١٩٦٣) ص ١٥٤ :

(٢٦) محمد ابراهيم الجيوشي : شاعر العروبة والاسلام : احمد محرم (القاهرة : ١٩٦١) ص ١٣٢ .

(٢٧) اقرا قصيدته «جلوة الحرية» في ديوانه : حكاية مغترب (بيروت : ١٩٦٠) ومقتطفات منها في كتاب مريدن ص ٣٠٥ .

(٢٨) انشودة المطر (بيروت : ١٩٦٠) ١٩٢-١٩٣ . ومثل اخر على ذلك قول الشاعر التونسي محمد الشاذلي خزنه دار من قصيدة «التمثيل» :

هذا لعمري صلاح الدين خالدة آثاره الغر مد اولته تبجيلا
وكم تخلد في تاريخنا الذهبي مما يكلل تاج العرب تكليلا
نحن الذين على منوالهم نسجوا ما اهلتنا ظروف الحال تاهيلا

انظر ملحق كتاب : الحركة الادبية والفكرية في تونس (القاهرة: ١٩٥٦) ص ١٠٧ .

(٢٩) فريد جحا : العروبة في شعر المهجر (بيروت : ١٩٦٥) ص ٧٤ .

(٣٠) تقويم الشعر السنوي الرابع (القاهرة : المجلس الاعلى لرعاية الفنون ، ١٩٦٣) ٦٣-٦٨ .

ومن الاشارات الحديثة الى صلاح الدين في سياق التغني بمصر ما جاء في قصيدة الدكتور عبد العزيز برهام «الحذاء الصغير» :

كل فرد فيه اذا قامت الهيجاء عند النزال جم غفير
سل (رعمسيس)سل اخاه (صلاح‌الدين)كيف الاحكام والتدبير

مهرجان الشعر الخامس (القاهرة : ١٩٦٤) ص ٨٩ وقصيدة عبد العليم القباني «من ايامنا الخالدة» :

عليها صلاح الدين يحمي لواءها ومن حوله اسد غضاب وانسر
ودين اذا ما اسرف الغرب ظالما تسامت به الاخلاق ترعى وتحصر
وشتان بين‌الغرب: في القدس‌سيفه عليه العذارى والطفولات تنحر
وبين سماح الشرق يعفو وحوله رقاب العدا لو شاء تجبى وتبتر

انظر مجموعته : اشعار قومية (القاهرة : ١٩٦٦) ص ١٤

(٣١) ديوان حافظ ابراهيم (القاهرة : ١٩٥٤) ٩٠/١ - ٩٦

(٣٢) بدوي طبانه «كفاح مصر والعراق في شعر خالد الشواف» «الرسالة» ٢٢ (١٠٧٣ / ٦ اغسطس ١٩٦٤) ص ٩ .

(٣٣) الديوان (دمشق : ؟١٩٦٠) ص ٤٥ وسامي الكيالي : الادب والقومية في سورية (القاهرة : ١٩٦٩) ص ٢٦٥ .

(٣٤) مهرجان الشعر الاول (القاهرة : ١٩٦٠) ١٣-١٥ .

(٣٥) المصدر نفسه ٨١–٨٣ ، وديوان عدنان مردم بك صفحة ذكرى (القاهرة : ١٩٦١) ١٦

(٣٦) صفحة ذكرى ص ٢٣ . وهنالك اشارات اخرى تتخذ من صلاح الدين رمزا للاواصر بين مصر وسوريا كالتي وردت في القصائد التالية : «حية» لحمود رمزي نظيم : الرمزيات (القاهرة : بلا تاريخ) ص ١١٧ ، و«دمشق» لكامل امين : المشاعل (القاهرة : ؟١٩٦٢) ص١٣٩ و«الجمهورية العربية المتحدة» لعبد العليم القباني : اشعار قوميه ص ٨٩ .

(٣٧) ابراهيم طوقان: ديوان ابراهيم ط١ (بيروت: ١٩٥٥) ٦٧–٧٠

(٣٨) من الابيات التي تعكس صورة وضيئة لموقف صلاح الدين نقتطف ما يلي :

في كل خطار على الاخطار صبار الجنان
حلقات ادرعهم قيود الموت في درك الطعان
حطين يومك ليس ينكر شاهديه الخافقان
تتطاير الارواح فيه من السنان الى السنان
حتى انجلى رهج الوغى والنصر مرموق العنان
ومشى صلاح الدين تحت لوائه في مهرجان
وعلا الاذان ورجعت تكبيره شرف الاذان

(٣٩) ديوان الجواهري ج١ (بغداد : ١٩٤٩) ص ٧٤–٧٩

(٤٠) عبد اللطيف شرارة : الشاعر القروي (بيروت : ١٩٦٠) ١٨٢ – ١٨٧ .

(٤١) عزيزة مريدن : المصدر المذكور ٣١٩–٣٢٠ وصالح الاشتر: في شعر النكبة (دمشق : ١٩٦٠) ١١ .

(٤٢) احمد محمد الحوفي : القومية العربية في الشعر الحديث (القاهرة : بلا تاريخ) ص ٢٩٦ وانظر اشارة سميرة ابو غزاله : الشعر العربي القومي في مصر والشام بين الحربين العالميتين الاولى والثانية (القاهرة : بلا تاريخ) ٧٨–٧٩ .

(٤٣) علي الجارم : سبحات الخيال (القاهرة : ١٩٦١) ١٢–٢٤ ، وانظر كتاب السوافيري ص ٤٩٥ .

(٤٤) مهرجان الشعر الاول (القاهرة : ١٩٦٠) ١٧–٢١ .

(٤٥) صفحة ذكرى ٤١–٤٣ .

(٤٦) بدوي طبانة : «نظرات في الشعر العراقي المعاصر» «الرسالة» ٢٢ (١٠٧٠/٢٣ يوليو ١٩٦٤ ص ٨–٩

(٤٧) محمد حسين الصغير : فلسطين في الشعر النجفي المعاصر ١٩٢٨–١٩٦٨ (بيروت : ١٩٦٨) ص ١٤٠ . ونجد في قصيدة كمال النجمي «فلسطين ونكبة اللاجئين» مثلا اخر للتطلع الى صلاح الدين يقود جيشه – كما فعل من قبل – الى النصر :

يا يوم حطين عد للشرق ثانية واخلع على العرب من انوارك القشب
اعد الينا صلاح الدين في اجم من القنا وخميس زاخر لجب
الانداء المحترقة ((القاهرة : ؟١٩٦٤) ٢٠–٢١

(٤٨) السوافيري : الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين ص ٥٣٣ .

(٤٩) المعرفة (السورية) ٥ (٥٧ / تشرين الثاني ١٩٦٦) ٧٤–٧٧

(٥٠) طبانة . المصدر المذكور ص ١٠

(٥١) مريدن : القومية والانسانية في شعر المهجر الجنوبي ص٣١٩

(٥٢) حسن جاد حسن : الادب العربي في المهجر (القاهرة : ١٩٦٢) ص ٣٦٣ .

(٥٣) السوافيري . ص ٢٥٧ .

(٥٤) علي صدقي عبد القادر : صرخة (بيروت : ١٩٦٥) ١٦٦ .

(٥٥) كاظم جواد : الآداب ٤ (١٩٥٦) ١٣٥ ، من اغاني الحرية (بيروت : ١٩٦٠) ١٧٥–١٧٩ .

(٥٦) جورج صيدح : ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية (بيروت: ١٩٦٤) ص ١٥٣ .

من الامثلة الاخرى التي تلمح الى صلاح الدين في تعبيرها عن الاحساس بالخيبة ما جاء في قصيدة يوسف الخطيب «لو رضيت خلاء النفس» واحة الجحيم (بيروت : ١٩٦٤) ١٠٣–١٠٤ ، وقصيدة نزار قباني : شعراء الارض المحتلة (بيروت : ١٩٦٨) ص ١٦ .

(٥٧ أ) نوفيق زياد : اشد على ايديكم (بيروت : بلا تاريخ) ٢٣–٢٤

(٥٧ب) هارون رشيد : سفينة الغضب (الكويت : ؟١٩٦٨) ١١–١٢

(٥٨) عبد الوهاب البياتي: الموت في الحياة (بيروت: ١٩٦٨) ١١٦

(٥٩ أ) صالح الاشتر : في شعر النكبة (دمشق: ١٩٦٠) ١٠٨

(٥٩ب) البياتي : النار والكلمات (بيروت : ١٩٦٤) ٣٦–٣٧

(٦٠) محمود درويش : حبيبتي تنهض من نومها (بيروت : ١٩٦٩) ٥٧ – ٥٨ .

(٦١) سميح القاسم : دمي على كفي (بيروت : بلا تاريخ) ٩٢–٩٥

(٦٢) الآداب ١٥ (٩/ايلول ١٩٦٧) ص ١٧ .

(٦٣) من امثلة التشبيه التي تتناول غير الرئيس عبد الناصر ما قاله الشاعر المهجري جورج صوايا عند قيام الحكم العربي الفيصلي في سوريا :

قد قام فينا صلاح الدين ويحهم فليقحم الشام من قد قال لم يقم

(٦٤) بحيري : تحت لواء العروبة (القاهرة : ١٩٦٠) ١٠٠–١٠١

(٦٥) محمد حسين الصغير : فلسطين في الشعر النجفي المعاصر ٢٧٦ .

(٦٦) مهرجان الشعر الثاني (القاهرة : ١٩٦١) ص ٥٣ .

(٦٧) بدوي طبانة : «كفاح مصر والعراق في شعر خالد الشواف» «الرسالة» ٢٢ (١٠٧٣ و ٦ اغسطس ١٩٦٤) . ٨

(٦٨) مهرجان الشعر الرابع (القاهرة : ١٩٦٣) ٦٤ .

(٦٩) محمد مصطفى الماحي : ديوان الماحي (القاهرة : ١٩٦٨) ٣٧

(٧٠) المصدر نفسه ص ٦٥

(٧١) هارون رشيد : مع الغرباء (بلا مكان ، بلا تاريخ ؟ ١٩٦٢) ص ٩٥ .

(٧٢) المصدر نفسه ١٠٤ – ١٠٥ .

(٧٣) هارون رشيد : حتى يعود شعبنا (بيروت : ١٩٦٦: ص ١١٢

(٧٤) كامل امين : المشاعل (القاهرة : ؟١٩٦٢) ١٣ – ١٤

(٧٥) لم يقتصر استحضار صلاح الدين على اوجه الصراع العربي – الغربي ، اذ ان هنالك ما يشير الى استخدام الشاعر له في مجالات اخرى ، كالمسالة الكردية في العراق كما ورد مثلا في قصيدة الشاعر محمود درويش «كردستان» :

هل خر مهرك يا صلاح الدين ؟
هل هوت البيارق ؟
هل صار سيفك ... صار مارق ؟
في ارض كردستان ...
حيث الرعب يسهر .. والحرائق

محمود درويش : اوراق الزيتون (حيفا : ١٩٦٤) ١٠٠–١٠٧ علما بان طبعة بيروت (دار العودة؟١٩٦٩) لم تشتمل على القصيدة المذكورة. ومما هو جدير بالذكر ان الاستاذ يوسف الخطيب اخذ على الشاعر استحضار القائد الايوبي في عكس ما يجب استحضاره فيه ... خاصة في مواجهة «الصليبية المعاصرة» على اساس ان ما يرمز اليه الايوبي في التاريخ هو قيادة الشرق العربي والاسلامي في مواجهة الحملات الاوربية . راجع يوسف الخطيب : ديوان الوطن المحتل (دمشق : ١٩٦٨) ٦٣–٦٥ .